الفكاهة في الأدب العربي

الدكتور محمد نعمان خان *

الفكاهة، بالضم: المزاح لانبساط النفس به[١] وفي مختار الصحاح: (ف ك ه) الفاكهة: معروفة وأجناسها: الفواكه. والفاكهاني: الذي يبيعها. والفكاهة، بالضم: المزاح، وبالفتح: مصدر فكه الرجل من باب سلم فهو فكه إذا كان طيب النفس مزّاحا. والفكه أيضا: البَطِر الأشِر. قرئ: ((ونَعمَةٍ كانُوا فِيها فَكِهِينَ)) [الدخان ٢٧] أي أشرين، ((وفاكِهِين)): أي ناعمين. والمفاكهة: الممازحة. وتفكّه: تعجّب، وقيل: تندّم. قال الله تعالى: ((فظلتم تفكهون)) [الواقعة ٦٥] أي تَندَمون [تَتَندَّمون]. وتفكّه بالشئ: تمتّع به[٢].

م ز ح المزح: الدُّعابة، وبابه قطع، والاسم: المُزاح والمُزاحة بضم الميم فيهما، وأما المِزاح بكسر الميم فهو: مصدر مازحه وهما يتمازحان[يُمازحان][٣].

الهَزْلُ لُغةً: المَزْح، وعُرفًا أن لا يراد باللفظ معناه لا الحقيقي ولا المجازي وهو ضد الجد[٤].

وفي الحدود الأنيقة[٥]: الجدّ، بالكسر يقال: للاجتهاد في الأمر، هو أن يقصد المتكلم بكلامه حقيقته [ويقال] لضدّه: الهزل، [وهو]: ما يستعمل في غير موضعه لا لمناسبة.

---

* الأستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة دلهي (الهند)

الدعابة، بالضم: اسم لما يستملح من المزح[٦]. وفي مختارالصحاح، الدُّعابة: المِزاح، وقد دعَب يدعَب كقطع يقطع فهو دعّاب بالتشديد، والمداعبة: الممازحة[٧].

وقد شرح الدكتور نعمان محمد أمين طه في كتابه الكلمات التالية الخاصة بالسخرية:

أما مادة "هزء" ففيها الحرفان (الهاء والزاي) وهما يوحيان بالخفة واللين، وأصلها من قولهم: أهزأه البرد: إذا قتله، وهزأ الرجل إبله هزءاً: قتلها بالبرد، وهزأت الراحلة: إذا حركتها. ففي المادة تحريك وقتل بارد لين من غير عنف أو صوت، وتكسير. أما مادة "تهكم" ففيها التهكم: وهو السيل الذي لا يطاق، والتهكم تهور البئر، وتهكمت البئر: تهدمت. والتهكم: الطعن المدارك، فالمادة فيها الهجوم بقوم وبصوت مسموع، كذلك فهي تصف صاحبها بالكبرياء: فالمتهكم: المتكبر، و[المتهكم]: المتقحم على ما لا يعنيه الذي يتعرض للناس بشره، وقد تهكم بنا: عبث بنا وزرى علينا.

إذن: فالتهكم: استهزاء في قوة، وعدم خفاء، وفي تقحم. أما مادة "تندر" فهي من ندر الشيء سقط وقيل سقط وشذ، وقيل سقط من خوف شيء أو سقط من جوف شيء أو من أشياء فظهر. ولم أجد في المعاجم تندر عليه، والظاهر أنها أخذت من أصل المادة "ند" وفيها محاولة الإسقاط أو إظهار العيوب بطريقة ملتوية فيها تباله وتجاهل وإظهار نوادر الشخص الذي يتندر منه وشذوذه.

أما السخرية: فمن مادة (س خ ر) وأصل التسخير: التذليل، جاء في (اللسان: سخر) سخرته: أي قهرته وذللته. وسخره تسخيراً: كلفه عملا بلا أجرة، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك: "مسخر" وتسخرت دابة لفلان: أي ركبتها بغير أجر. وأصل المادة في المعجم تدور بعامة حول "اللين" من الناحية الصوتية فإذا تتبعناها عرفنا مقدار ذلك، سواء أكان الحرفان (س، خ) متواليين كما ذكرنا في الهامش، أو منفصلين، ومن هذا يتبين لنا أن الحرفين (س خ) في كلمة (سخر) يوحيان باللين (التذليل) والخفاء، وعدم الإبانة بطريقة مباشرة"[٨].

الفكاهة من طبيعة البشر وتوجد في جميع المجتمعات تكون شرقية أو غربية، قديمة أو حديثة، متحضرة أو غير متحضرة مدنية أو قروية. وهناك كلمات مختلفة تستخدم لهذه الغاية منها مُزاح، دُعابة هَزء وسُخرية وما إليها. لعل أقدم كتاب مستقل نجد الإحالات إليه في كتب المحدثين هو كتاب الفكاهة والمزاح للزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة. وكذلك توجد أبواب مستقلة للنوادر والنكت في جميع كتب الأدب والمختارات.

وذكر النديم[٩] كتاب الفكاهة والدعابة للحكيمي أبي عبدالله محمد بن أحمد إبراهيم بن قريش الحكيمي[١٠].

وكذلك ذكر حاجي خليفة أمنية الألمعي ومنية المدعي للقاضي الأديب أبي الحسين أحمد بن علي بن الزبير الأسواني المتوفى سنة ثلاث وستين وخمس مئة وقال: وهي المقامة الحصيبية، رمى بها غرض الفكاهة وأملاها بلسان الدعابة على من

استوجب الانبساط إليه وذكر فيها علوما جمة، ثم شرح ما فيها من ألفاظ لغوية ومسائل علمية فصار نزهة للناظرين[١١].

وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته بالمزاح والدعابة، عن أم سلمة أن أبابكر خرج تاجرا إلى بصرى ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة، وكلاهما بدري، وكان سويبط على الزاد فقال له نعيمان: أطعمني، قال حتى يجيء أبوبكر، وكان نعيمان مِضحاكا مزّاحا، فذهب إلى ناس جلبوا ؟؟ ظهرا فقال ابتاعوا منى غلاما عربيا فارها، قالوا: نعم، قال: إنه ذو لسان ولعلّه يقول أنا حر، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوني لا تفسدوه علي، فقالوا: بل نبتاعه فابتاعوه منه بعشر قلائص، فأقبل بها يسوقها وقال: دونكم هو هذا، فقال سويبط: هو كاذب، أنا رجل حر، قالوا: قد أخبرنا خبرك، فطرحوا الحبل في رقبته، فذهبوا به، فجاء أبو بكر فأُخبِر، فذهب هو وأصحابه إليهم، فردوا القلائص وأخذوه، ثم أخبروا النبيّ [صلى الله عليه وسلم] بذلك، فضحك هو وأصحابه منها حولا[١٢].

ومن الأقدمين الذين تعرضوا للموضوع تعرضا ما، هما ابن المعتز (قتل سنة ٢٩٦ هـ) في كتابه " البديع " وقدامة بن جعفر في "نقد الشعر".

أما في القرن الماضي فقد نشر الدكتور نعمان محمد أمين طه كتابا قيما في الموضوع بعنوان: السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري وذلك سنة ١٩٧٨. واستعرض فيه الجهود السابقة فقال:

"أما في العصر الحديث، فمبلغ علمي أن الأستاذ عباس محمود العقاد كان أول من قرأ المؤلفات الغربية، وحاول الكتابة لأول مرة عن ملكة السخر عند المعري، وقد صدّرها بهذا السؤال: لم يسخر الإنسان؟ وكان بدؤه الكتابة في الموضوع سنة ١٩٠٢... ثم كتب عدة مقالات نشرها في كتابه "مطالعات". ثم كتب الشيخ عبد العزيز البشري [١٨٦٦-١٩٤٣] مقالا عن "مرد النكتة" سنة ١٩٢٧، عقب عليه العقاد بمقال طريف عن رأيه في النكتة ثم جمع آراءه في الضحك والسخرية وما يتصل بهما في كتابه "جحا الضاحك المضحك" وصدره بمقدمة طريفة عن النكتة المصرية في أثناء كلامه عن طبيعة الأمة المصرية في كتابه "سعد زغلول" فقسم النكتة إلى "نكتة دعابة ونكتة تهكم".

وكتب بعده المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة مقدمة لكتابه "حكم قراقوش" تحدث فيها عن المزاح أو الهزل والفكاهة أو التندر واللذع أو التهكم، وقد ذكر فيها أمثلة غير قليلة من الأدب الأجنبي والأدب العربي.... وللدكتور عبد [اللطيف] حمزة تكملة لكتابه السالف أصدره سنة ١٩٥٤ بعنوان: "ابن مماتي" أضاف إليه كثيرا من السخريات المختلفة في موضوعات شتى في الآداب الأجنبية. ولقد أفرد الأستاذ أحمد عطية الله الضحك بكتاب خاص أطلق عليه "سيكولوجية الضحك". وألف الدكتور شوقي ضيف كتابه "الفكاهة".

وظهر في نفس العام كتاب "كتاب سيكولوجية الفكاهة والضحك" للدكتور زكريا ابراهيم. ثم صدر في سنة ١٩٦٠ كتاب

"أسلوب التهكم في القرآن الكريم". وأخيراً أصدرت مجلة الهلال عددا خاصا عن "الفكاهة [في مصر]" سنة ١٩٦٦".

وكذلك صدر لأحمد محمد الحوفي "الفكاهة في الأدب: أصولها وأنواعها" في سنة ١٩٦٦. ونشر فتحي محمد عيسى كتا "الفكاهة في الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث للهجرة (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) سنة ١٩٧٠، ثم جاء كتاب محمد عبد المنعم الخفاجي بعنوان: الفكاهة في الأدب العربي سنة ١٩٧٩.

وقد لاحظ الدكتور نعمان محمد أمين طه المذكور عدم اعتناء العرب بهذا الموضوع فقال:

وهأنذا اليوم أقدم دراستي عن غرض من أخطر أغراض الأدب العربي شعره ونثره: ألا وهو " السخرية " التي ظلت موضع اهتمام الأوروبين والأمريكين وغيرهم منذ أمد طويل، معالجة وممارسة وتأليفا، حتى بلغت كتبهم في ذلك المئات، وظلت أيضا تعالج بحثا في دوائر معارفهم تحت ألفاظ متعددة منها: (Comedy, (Laughter, S(a) rcasm, Satire, Irony, Humour, Caricature etc.. وغيرها، بينما لا نكاد نعثر على مؤلف عربي يضارع أو يقارب ما هو موجود لدى هؤلاء القوم.

هناك فرق كبير بين الفُكاهة والسُّخرية، وكثيرا ما يخلط بينهما، فإذا كانت النكات لمجرد الإضحاك فحسب فهي الفكاهة، وإذا كانت بقصد اللَّذْع واللإيلام فهي السخرية، ولهذا اشتملت كتب الأدب القديمة على النص على كراهية المزاح،وقد تجمع بين الغرضين فمن النكت الفكاهية ما يروى عن أحد المفرطين في

شرب الخمر أنه قال له أحدهم: إن الخمر انتحار بطـــيء فأجـــاب: ولماذا تريدونني أن أنتحر بسرعة؟!.

ومن النكت الساخرة نادرة تروى عن أحد الأمـــراء، فقـــد التقى يوماً بغريب يشبهه تمام الشبه، فابتدره بقوله: هل كانت أمـــك يا هذا تقيم في البلاط الملكي؟ فأجاب الغريب ببديهته الحاضرة: كلا يا سيدي، بل أبي!

وإذا روى أحد الأشخاص النكتة السابقة لبعض الجالســـين بقصد الضحك فهي فكاهة، أما إذا حدثت فعلا فـــي مجلـــس مـــن المجالس فيعد الرجل ساخراً بالأمير، ولذلك تسمى سخرية[١٣].

وقد قال عزوجل ((يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيـــرا منهن، ولا تلمـــزوا أنفســـكم ولا تنـــابزوا بالألقـــاب)) الحجـــرات (٤٩):١١.

يمكن تقسيم دوافع الفكاهة عند العرب إلـــى ثلاثـــة فئـــات: سياسية ودينية وطبقية، وذلك طبعـــا لتطـــور الحيـــاة الإســـلامية عامة.....[١٤] ونضج هذا الفن في العصر العباسي لعوامل كثيـــرة ولا سيما الإباحية والشعوبية فالجو الجديد أتاح للشاعر المـــاجن أن يتناول كل شئ بالهزء والمجون ولعل الأقيشر الشاعر الماجن يمثل هذه الفئة أحسن تمثيل فقد سئل مرة عن خلفاء الراشدين وعن رأيه فيهم، فقال

إذا صليت خمسا كل يوم فإن الله يغفر لي فسوقي
ولم أشرك برب الناس شيئا فقد أمسكت بالحبل الوثيق

وهذا الحق ليس به خفاء ودعني من بنيات الطريق

وبنيات الطريق: هي الطرق المتشعبة عن الطريق الرئيسي ويكنون بها عن الأمور الثانوية[١٥]

إن أهم المواطن التي كثرت فيها الأخبار الضـــاحكة عنـــد العرب، هي

الفكهون المحترفون المرأة والخمرة واللحن الجميل

الأعراب

القضاة الوزراء الفكاهة الخالصة

وأجمل الفكاهة وأرفعها هي تلك التي ليس فيها قسوة ولا تعـــدٍّ ولا حقد ولا أذية للغير أي إنها تلك الفكاهة التي تأتي عفوا وتصدر عن حالة نفسية خاصة. وقيل إن رجلا اعترض جارية في الطريق فقال لها: أ بيدك صنعة؟ قالت لا، ولكن برجلي تريـــد أن تقـــول إنهـــا راقصة، وهي تستنكف أن تقول ذلك عن نفسها في زمن وبيئة لـــم يكن الرقص فيها مهنة محترمة[١٦] وهذا يمكن أن تســـميه الفكاهـــة الخالصة.

ومن الفكاهة الخالصة قول شاعر صُعلوك معدِم ولكنه مرح لا يُقفل بابه خوفا من السرقة، إنما يخشى أن يرى الناس فقره:

ليس إغلاقي لبابي أن لي فيه ما أخشى عليه السرقا

إنما أغلقته كيلا يرى سوء حالي من يمر الطرقا

وهناك ضرب من الفكاهة أساسه التلاعب بالمعاني عن قصد وقـــد يتخذ صورة التلاعب بالمعنى عن غير قصد، وهو أنـــواع شـــتى. فهذه إمراة متهتكة، ولكنها طريفة تحسن الجواب، قيل لهـــا: أ بكـــر

أنت؟ قالت أعوذ بالله من الكساد، ولكن رفيقتها.. لم تفهم السؤال ذاته فقال المتوكل لجارية استعرضها: أنت بكر أم أيش؟ قالت: أنا أيش يا أمير المؤمنين[١٧].

* رأى هارون الرشيد أبا نواس ومعه زجاجة خمر، فقال له:

ـ ما هذا يا أبا نواس؟

فقال أبو نواس: لبن يا سيدي؟

ـ اللبن أبيض وهذا أحمر!؟

ـ نعم يا سيدي، لقد احمرّ خجلاً منك.

فضحك الرشيد وتركه.

الأعراب:

وقيل: سرق أعرابي صرة فيها دراهم، ثم دخل ليصلي، وكان اسمه موسى، ((فقرأ الإمام: ((وما تلك بيمينك يا موسى)) فقال الأعرابي والله إنك لساحر، ثم رمى الصرة وخرج[١٨].

القضاة والوعاظ:

ومن الفكاهات إن رجلا قدم ابنه إلى القاضي، فقال أصلح الله القاضي إن هذا الصبي يشرب الخمر ولا يصلي، فقال له القاضي: ما تقول يا غلام فيما حكاه أبوك عنك، قال: يقول غير الصحيح، إني أصلي ولا أشرب الخمر، فقال أبوه: أتكون الصلاة بلا قراءة؟ قال إقرأفقال بسم الله الرحمن الرحيم

علق القلب للرَّبابا بعد ما شابت وشابا

فقال أبوه: والله أيها القاضي ما تعلّم هاتين الآيتين إلا البارحة لأنه سرق مصحفا من بعض جيرانها، قال القاضي: قبّحكما

الله[١٩].

الطفيليون:

كذلك ضحك العرب من الطفيليين كما يظهر في قصص الطفيليين ونوادرهم، وطفيلي لا يختلف كثيرا عن المهرّجين المحترفين. يقال أوّلهم طفيل العرائس، وإليه نسب الطفيليون، من تعليماته لأصحابه: إذا دخل أحدكم عرسا فلا يلتفت تلفت المريب، وليتخير المجالس، وإن كان العرس كثير الزحام فليمض ولا ينظر في عيون الناس ليظن أهل المرأة أنه من أهل الرجل ويظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة، فإن كان البواب غليظا وقاحا فتبدأ به وتأمره وتنهاه من غير أن تعنف عليه ولكن بين النصيحة والإدلال[٢٠].

يحكى أنه مر طفيلي على قوم يتغذون فقال: سلام عليكم يا معشر اللئام، فقالوا: لا والله بل كرام، فثنى ركبته ونزل وقال: اللهم اجعلهم من الصادقين، واجعلني من الكاذبين.

ودخل طفيلي على قوم يأكلون، فقال: ما تأكلون؟ فقالوا من بغضه: سما، فأدخل يده وقال: الحياة حرام بعدكم[٢١]

الحمقى والمغفلون:

أما الحمقى والمغفلون هم مادة دسمة للتندر والضحك، ومما يروى عنهم أن أحمقا قال لإبنه الأحمق: أي يوم صلينا الجمعة في مسجد الرصافة، فقال لقد نسيت، ولكنني أظن أنه يوم الثلاثاء، قال صدقت، كذا كان[٢٢].

الحواشي:

١. التوقيف: ٥٦٣
٢. ص: ٢١٣ (فكه).
٣. مختار الصحاح: ٢٦٠ (مزح).
٤. التوقيف: ٧٤١.
٥. ص: ٧٨ (بتغير)
٦. التعاريف ج : ١ ص : ٨٦
٧. ص: ٣٣٨ (دعب)
٨. انظرالسخرية في الأدب العربي حتى...
٩. الفهرست (فلوجل) ص ٢١٦
١٠. المتوفى سنة ٣٣٦ هـ هدية العارفين ٣٨/٢.
١١. كشف الظنون ج : ١ ص: ١٦٩
١٢. الإصابة ٢٩٧/٤ برقم ٣٥٨٤.
١٣. نظرالسخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتور نعمان محمد أمين طه١٩٧٨
١٤. الفكاهة عند العرب لأحمد عكيدي ص ٢٢١ بالإشارة الفكاهة عند العرب ص ٦٧ (المعرفة دمشق مايو ٢٠٠٣).
١٥. لفكاهة عند العرب لأحمد عكيدي ص ٢٢٩ بالإشارة إلى العقد الفريد ٥ ٢٩٠١
١٦. الفكاهة عند العرب لأحمد عكيدي ص ٢٢١ بالإشارة الفكاهة عند العرب ص ٩٣-٩٤
١٧. الفكاهة عند العرب لأحمد عكيدي ص ٢٢٥ بالإشارة إلى الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها لأحمد الحوفي ص ٧٧
١٨. الفكاهة عند العرب لأحمد عكيدي ص ٢٢٥ بالإشارة إلى الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها لأحمد الحوفي ص ٥٦
١٩. الفكاهة عند العرب لأحمد عكيدي ص ٢٢٩ بالإشارة إلى الفكاهة عند العرب ص ١٦٤
٢٠. لفكاهة عند العرب لأحمد عكيدي ص ٢٣٢ بالإشارة إلى الفكاهة في

الأدب ص ٣٠٤

٢١. الفكاهة عند العرب لأحمد عكيدي ص ٢٣٢ بالإشارة إلى الفكاهة عنـــد العرب ص ٢٠٩

٢٢. الفكاهة عند العرب لأحمد عكيدي ص ٢٣٢ بالإشارة إلى أحلى النـــوادر والطرائف من عيون التراث العربي لراجي الأسمر ص ٩٠.

المصادر والمراجع:

١. الإصابة في تمييز الصحابة/ ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي ت ٨٥٢هـــ)، وبذيله كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر(يوسف بن عبد الله)، تحقيق طه محمد الزيني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ١٤١٤هـــ/ ١٩٩٣م.

٢. التوقيف على مهمات التعاريف/ محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، (ط١) ١٤١٠هـــ (المكتبة الشاملة).

٣. الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة/ زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى، تحقيق د. مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت (ط١) ١٤١١هـــ. (مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بِدُبي).

٤. السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ د.نعمان محمد أمين طه، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر (ط١) ١٩٧٨ (طبعة ألكترونية على النيت).

٥. الفكاهة عند العرب لأحمد عكيدي، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق مج ٤٢ عدد ٤٧٦ (٢٠٠٣) صص ٢١٦-٢٣٣.

٦. الفهرست / النديم (محمد بن إسحاق، ت ٤٣٨هـــ) /[طبعة فلوجل]، دار المعرفة بيروت.

٧. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون/ حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله، كاتب چلبي، ت ١٠٦٨هـــ) /دار إحياء التراث العربي، بيروت.